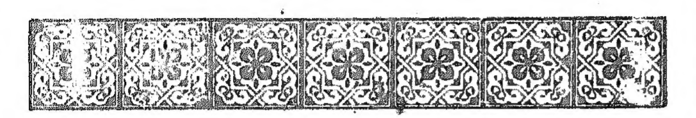
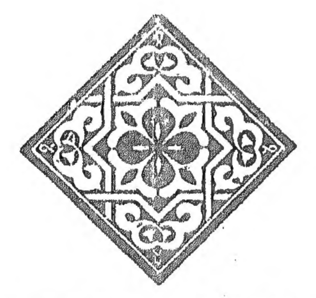
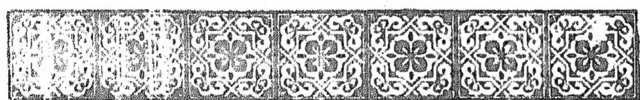
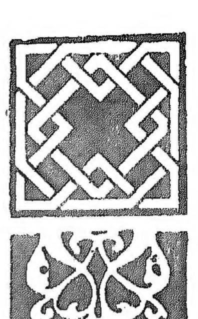
الدكتور محمد البهي

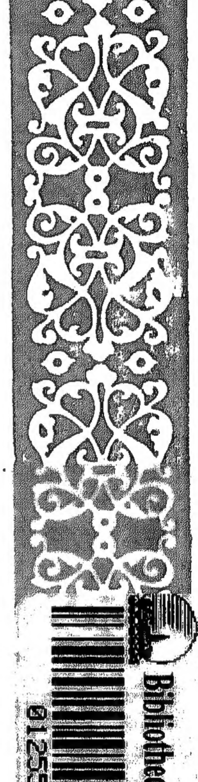


الإسلام .. والاقتصاد





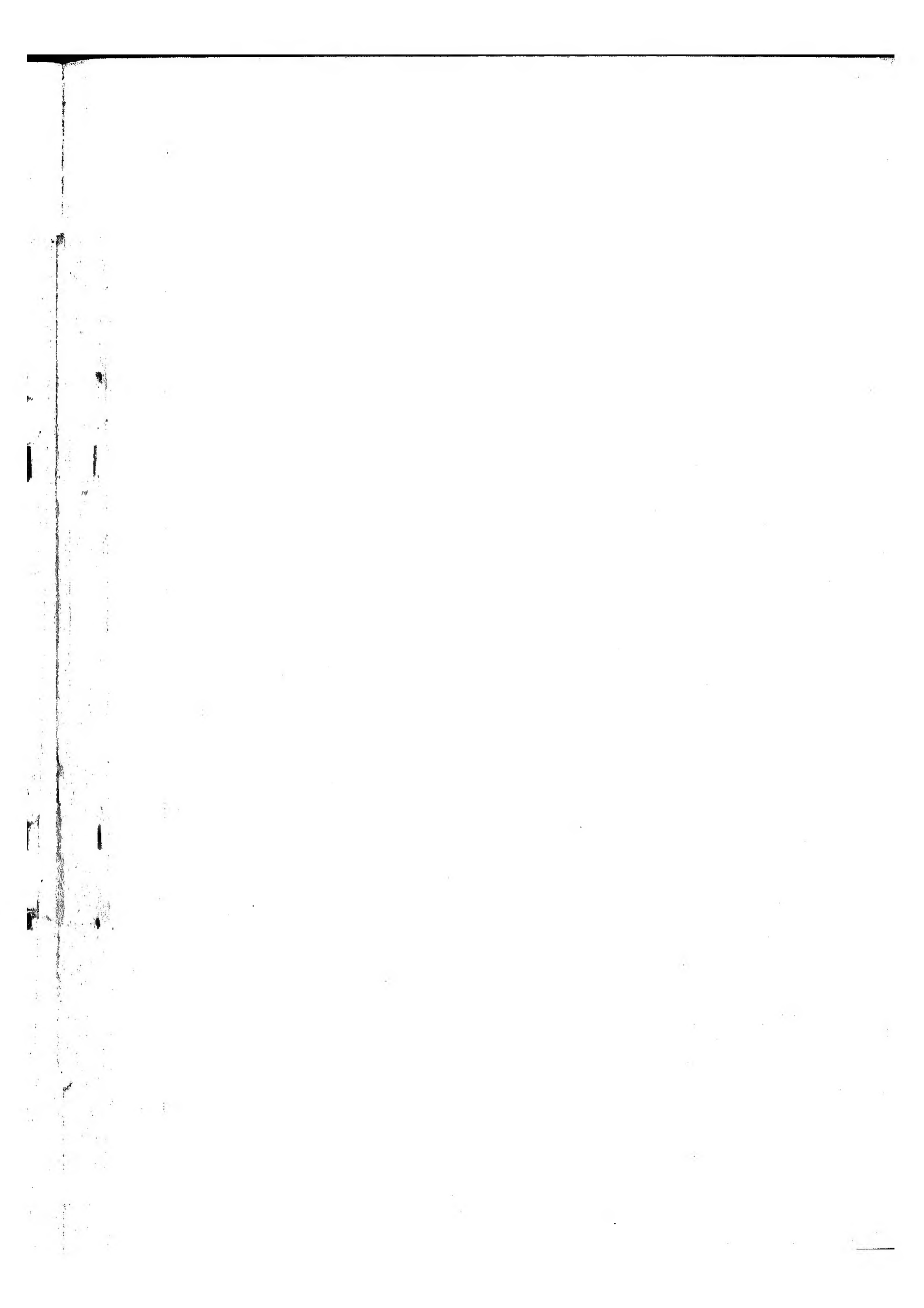




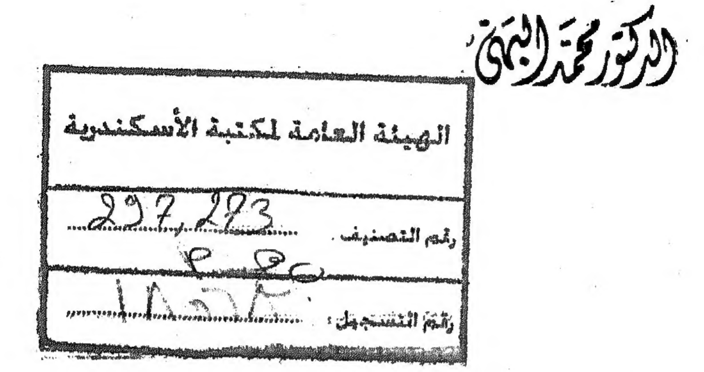




يطلب من : مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - تليفون ٩٢٧٤٧٠



الدكتور محمد البهي



الإسلام .. والاقتصاد

الناشر : مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية - بعابدين

القاهرة - ت : ٩٣٢٤٧٠

الطبعة الثانية

شعبان سنة ١٤٠١ هـ ـ يونيه سنة ١٩٨١ م

دار التضامن للطباعة
٢٢ شارع سامى ـ ميدان لاظوغلى
القاهرة ـ تليفون ٣٠٥٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كثر الحديث فى السنوات الاخيرة عن : « الاقتصاد الاسلامى » أو عن « الاقتصاد فى الاسلام » والمعالجة لهذا الموضوع ـ فيما ظهرت حتى الآن ـ لا تقوم على نظرة شاملة للاسلام فى رسالته ، ولا على النظرة الأساسية لهذه الرسالة .

والنظرة الأساسية لرسالة الاسلام تقوم على : « اعادة » تقييم الاسلام : للاقتصاد .. والانسان معا . فدعوته لم تقم من فراغ . وانما قامت فى مواجهة المادية . ومعنى المادية : طغيان الاقتصاد . ومعنى طغيان الاقتصاد : الاستخفاف بقيم الانسان . وترجمة ذلك : أن الانسان الذى يعيش فى ظل طغيان الاقتصاد ، يؤثر جانب الاقتصاد على جانب الانسانية والقيم المشتركة بين انسان وانسان ، فى المعاملة .. والسلوك . والتفكير .

مثلا فى التجارة : لا يرعى التاجر صاحب المال : حاجة المتعامل معه ، ولا ضعفه فى القدرة المالية . وانما يرعى شيئا واحدا .. يرعى حصوله على أكبر نسبة ممكنة فى الربح من التجارة معه ، بطريقة أو بأخرى : لا يرحم ، ولا يعرف قيمة الرحمة بين القيم الانسانية . لأنها من المعانى التى لا تدخل فى العدد والحساب المادى . بل ربما يصعد المعادلة معه : يحتكر ، فتشتد الحاجة بسبب الاحتكار ، فيرتفع الثمن ، وتقل القدرة لدى أصحاب الحاجة ، وتزداد الآمهم بسبب نقص

القدرة الشرائية لديهم • وعن هذا الطريق تتخم جيوب ، وتخوى جيوب أخرى ، أو تخوى بطون مع ذلك •

فهنا : وضع طغيان الاقتصاد فى طرف •• ووضعت القيم الانسانية فى طرف آخر • فكانت السيادة للجشع وطغيان المال على قيمة الرحمة بالضعفاء • لأن طغيان الاقتصاد الآن لم يعبأ بقيمة انسانية ، وهى قيمة « الرحمة » وتركها منعزلة عن التطبيق فى الحياة • والذى عمل على عزلها هو الوقوع تحت تأثير الطغيان للاقتصاد •

ومثلا فى الحكم : صاحب مال •• وصاحب حق ، يعيشان معا فى حياة مجتمع مادى • أى مجتمع يؤثر جانب الاقتصاد على جانب القيم الانسانية • فصاحب المال بما يقدمه من رشوة للحاكم يظفر بما لصاحب الحق من حق هو له بالعدل • ويترك العدل كقيمة انسانية منعزلا عن حياة الناس • والذى عمل على عزله هو الوقوع تحت التأثر بطغيان الاقتصاد ، أو بالاتجاه المادى فى المجتمع • وهكذا ••

فرسالة الاسلام فى اعادة تقييم كل من الاقتصاد •• والانسان :

- ترعى فى الاقتصاد عاملا رئيسيا فى حياة الانسان • ولكن لا تقيمه بقيمة أعلى من الانسان ، فضلا عن أن تصل به الى مستوى الاله •
- ولا تدعو الى الانصراف عنه ، ولا الى الاستخفاف بقيمته ، أو الى ترك العمل فى انمائه ، أو الى عدم الاستمتاع به •
- واذا دعت الى الزهد فى متاع الحياة ، فانها تدعو الى عدم المبالغة فيه ، بحيث يطغى به الانسان فينكر الله

واليوم الآخر • واذا قيمت هذا المتاع بقيمة أدنى ، فان ذلك بالقياس الى جزاء الآخرة ، حتى لا يتهافت الناس على الدنيا وحدها •

- وتدعو ا ى ابعاد الاقتصاد فى انمائه : عن أكل أموال الناس بالباطل : فى أية صورة •• وبأى سبب • أى تدعو الى ابعاد الاقتصاد عن أن يكون طريقا لاستغلال انسانية الانسان • كما تدعو فى انفاقه الى ابعاده عن التبذير •• أو عن السفه • والتبذير هو الانفاق فى محرم ولو كان قليلا • والسفه هو الانفاق فيما يضر الأمة • كالانفاق على عدو لها ، مهما كان ضئيلا •
- وترى فى اعادة تقييم الانسان : أن الاقتصاد فى خدمته وأنه مسخر له •
- وأن الهدف الأول فى حياته هو تطبيق القيم الانسانية • وليس جمع المال والركون اليه • على معنى : أن الأولوية فى نشاط الانسان تكون للقيم الانسانية ، تأتى بعدها مرتبة الاقتصاد • فاذا اشتغل بالاقتصاد مثلا فيجب أن يحاول أن يكون أســاس العمل فيه : مراعاة التوجيه الاســلامى أولا فى الاقتصــاد : قيمــة •• وانمــاء •• وآفاقــا •••

وهذه الرسالة : « الاسلام •• والاقتصاد » تضع أمام القارىء خطوطا عامة لاعادة التوازن ، أو اعادة التقييم بين الجانبين : الاقتصاد ـ والانسان • ورسالة الاسلام تضفى على الاقتصاد من انسانية الانسان ، ولكنها لا تدخل فى تقييم الانسان : مقدار ما يملك الانسان • اذ رسالة الاسلام دائما : هى رسالة الانسانية ، فى مواجهة المادية •

ولذا : عندما يحدد أى منتسب الى الاسلام : رأى الاسلام فى الحل .. أو فى الحرمة ، لسبيل من سبل انماء الاقتصاد وزيادته ، أو لوجه من أوجه الصرف لناتج الاقتصاد : يجب أن يأخذ فى الاعتبار : مدى طغيان الاقتصاد أو عدم طغيانه على القيمة الانسانية فى هذا السبيل أو فى ذاك الوجه . وبذلك يكون الرأى قائما على الهدف الأصيل فى نظرة الاسلام الى الاقتصاد .

واذا نسب لبعض علماء المسلمين فيما مضى قوله : ان الحل هو الأصل فى المعاملات . أما الحرمة فعندما يطرأ ضرر فيها .. فان هذا القول يصور أبعاد الهدف من نظرة الاسلام الى الاقتصاد . لأن الضرر يطرأ على المعاملات حيث يطغى التأثر بالاقتصاد على عزل قيمة من القيم الانسانية فى حياة الانسان : كعزل الرحمة .. والعدل .. والتعاون ، مثلا .

والله الموفق ...

مصر الجديدة فى ذى القعدة سنة ١٣٩٧ هـ
نوفمبر سنة ١٩٧٧ م

محمد البهى

بسم الله الرحمن الرحيم

● المادية تدعو الى تأليه الاقتصاد :

« الاقتصاد » : كل ما يمكن أن يخدم الانسان فى معيشته فى هذه الحياة :

فالثروة الزراعية جانب من جوانب الاقتصاد ·

والثروة الحيوانية جانب آخر منه ·

والمعادن المختلفة من ذهب وفضة ، ونحاس ، وقصدير ، وحديد ، وصفيح ، وبترول ، وفحم ·· الخ : جانب ثالث ·

والمصنوعات القائمة على هذه الجوانب التى تمثل المواد الأولية : جانب رئيسى فيه كذلك ·

والاقتصاد بهذا المعنى :جميع الثروات الأرضية التى وهبت للانسان ، والتى يستخدم فيها الانسان طاقاته العقلية والبدنية، لاعدادها صالحة لمد الانسان بالحيوية ، وبالقوة ، وبالوقاية ، وبالتمكن من استخدامها والتحكم فى الاحتفاظ بها ·

وليس هناك اقتصاد اسلامى ·· وآخر غير اسلامى · وانما هناك نظرة الاسلام الى الاقتصاد ، ونظرة غير الاسلام اليه · وغير الاسلام هو المادية التى تقدس « الاقتصاد » · وقد تبالغ فى تقييمه فترفعه الى مستوى الألوهية والخالقية ·

واذن هناك نظرتان الى الاقتصاد : نظرة الاسلام ، وهو دين الانسانية · على معنى أنه دين يقدر الروابط الانسانية فى العلاقات بين الناس والأفراد ، ويعطى للقيم العليا فى حياة الانسان أهمية خاصة ورعاية خاصة دون أن يغض من قيمة

الاقتصاد • ونظرة المادية ، وهى النظرة الأخرى التى قد تغفل كثيرا القيم العليا ، فى سبيل تمجيد الاقتصاد ، وتصويره بأنه مصدر الخلق للانسان • ومصدر تطوره •• ومصدر حضارته •

ولكن قد تقبل كلمة : الاقتصاد الاسلامى ، اذا قصد به « الاقتصاد » وفقا لمنهج الاسلام المؤسس على نظرته اليه • كما سنرى : كيف يخط الاسلام طريقه لتحقيق مسار الاقتصاد طبقا لنظرته •

والمادية اذا كانت تنظر الى الاقتصاد – فى كثير من المبالغة – على أن له خالقية فى المجتمع والافراد ، فهى تقيم منه معبدا يتجه اليه الانسان بالعبادة ، ويستلهم منه الصلاحية للبقاء فى الحياة • وقد يرتقى الاقتصاد فى نظرة المادية الى الطغيان ، والتفوق على القيم الانسانية فى الاعتبار ، حتى تسقط هذه القيم فى مواجهته الى مستوى الخضوع والاستسلام • ويصبح الانسان بكل امكانياته البشرية غير ذى ايجابية من غير اقتصاد • وقد يستحيل أن تكون له ارادة مستقلة فى غيبتــه •

وكانت نظرة العهد الجاهلى قبل رسالة الرسول محمد عليه السلام ، الى الاقتصاد نظرة مادية تفوق الروابط الانسانية بين الأفراد ، كما تفوق القيم الانسانية فى حياة الانسان • كان ذلك فى شبه الجزيرة العربية ، وكان ذلك فى امبراطورية الرومان فى الغرب ، والامبراطورية الفارسية الأخــرى فى الشرق • وكانت خشية قريش من رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام مبعثها : عاملا اقتصاديا ، وهو الحرص على الزعامة

فى الكعبة كمصدر للنفع المادى • كما كان الصراع بين الروم والفرس اذ ذاك : صراعا اقتصاديا وماديا •

وفى مخاطبة القرآن لقريش وعرب شبه الجزيرة يصفهم بطغيان الاقتصاد على اتجاههم فى الحياة ، فيقول لهم :

« كلا بل لا تكرمون اليتيم ،

ولا تحاضون على طعام المسكين ،

وتأكلون التراث أكلا لما ،

وتحبون المال حبا جما » (١) ••

•• فكانوا يستهينون باليتيم – وهو ضعيف – فلا يحافظون على ماله ، ان باشروه • ولا يحسون باحساس حاجة المسكين فيتخلون عنه •• ولا يلتزمون بحقوق الميراث بالنسبة للصبى أو المرأة ، فيأكلونه بدون تمييز •• ويفرطون فى حب المال بحيث يغلبون جانبه ، وينتهى أمره لديهم الى الطغيان – وتلك عادة الانسان :

« كلا ان الانسان ليطغى • أن رآه استغنى » (٢) •

وكان من سيادة الاقتصاد على اتجاههم فى الحياة ، وعلى القيم الانسانية لديهم كذلك : أنهم كانوا يدفنون بناتهم بعد الولادة تحت التراب ، وهن أحياء ، مخافة الفقر ، وتجنبا للمذلة كما يدعون أو يتصورون :

« واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم •

---

(١) الفجر : ١٧ – ٢٠ •

(٢) العلق : ٦ ، ٧ •

يتوارى من القوم ، من سوء ما بشر به ،
أيمسكه على هون ؟ أم يدسه فى التراب ؟
ألا ساء ما يحكمون » (١) ••

وسورة «الروم» ـ فى القرآن الكريم ـ عندما أعلنت قبل الهجرة الى يثرب : انتصار الفرس على الروم فى أدنى الأرض ، وهو الشام ، وفى بيت المقدس •• ثم أعلنت فى الوقت نفسه : نصر الروم على الفرس فى الغد ، ولكن بعد بضع سنين من نجاح الفرس فى غزو الامبراطورية الرومانية •• أعلنت هذا •• وذاك ، بناء على وحى الله لرسوله الكريم عليه الصلاة والسلام • ولكن طبيعة الصراع بين الامبراطوريتين كانت تساعد على الايمان بما أعلنته السورة مستقبلا فى جانب الرومان • اذ كان الصراع ماديا ، ومن أجل الاقتصاد وحده • ويقول الله جل شأنه فى بداية السورة :

« ألم • غلبت الروم • فى أدنى الأرض ،
وهم من بعد غلبهم سيغلبون • فى بضع سنين ،
لله الأمر من قبل ومن بعد ،

ويومئذ يفرح المؤمنون • بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم • وعد الله ، لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٢) ••

•• والصراع اذا كان اقتصاديا لابد أن يتحول الى قتال بين المتصارعين ، فهزيمة ونصر فى هذا الجانب أو فى ذاك •

---

(١) النحل : ٥٨ ، ٥٩ •
(٢) الروم : ١ ـ ٦ •

ويظل القتال مؤرجحا ومترددا بينهما ، الى أن تقضى عليهما معا قوة ثالثة تختلف معهما فى تقييم الاقتصاد فى علاقته بالقيم الانسانية فى حياة الانسان • وكانت هذه القوة الثالثة هى قوة الاسلام ، أو قوة الدعوة الى الروابط الانسانية •

وفرح المؤمنين بنصر الله هو فرحهم فى واقع الأمر بما أحرزوه بعد الهجرة من نصر فى غزوة « بـدر » • اذ كانت هزيمة الفرس - وهم حلفاء لقريش فى شبه الجزيرة العربية - على يد الرومان : عاملا لاضعاف شوكة قريش فى معارضتها رسالة الرسول عليه السلام ، وفى ايذائها للمؤمنين • وبالأخص فى تلك الفترة الزمنية التى انتصر فيها الفرس على الروم •

وقد كتب النجاح للمؤمنين فى غزوة بدر ، ثم بعد ذلك فى القضاء على امبراطوريتى : الفرس شرقا ، والروم غربا ، لأنهم أخذوا بنظرة الاسلام الى الاقتصاد ، ولم ينظروا اليه على أنه كل شىء فى الحياة ، وأنه مصدر الحياة اذا توفر ، ومصدر الفناء اذا ضاق وتخلف •

والمبالغة فى تقدير قيمة الاقتصاد قبل البعثة المحمدية يشير اليها القرآن الكريم فى عدة آيات • يقول تعالى :

« زين للذين كفروا : الحياة الدنيا
ويسخرون من الذين آمنوا » (١) ••

فالذين لم يؤمنوا برسالة الرسول عليه السلام خدعوا بمتع الحياة الدنيا ، واغتروا بما بين أيديهم من ثروات • ولذا كانوا يسخرون من المؤمنين ، لأنهم فقراء • والحياة الدنيا فى الآية هنا : هى قوة الاقتصاد • ومبرر السخرية من المؤمنين فى

---

(١) البقرة : ٢١٢ •

نظرهم ، هو الضعف المادى بسبب الفقر والحاجة • وقد جاء وصف الذين آمنوا بالرسول عليه الصلاة والسلام بالضعف ، فى قول الله تعالى :

« **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون** » (١) •• فوصفهم بالذلة هو معنى وصفهم بالضعف لقلة العدد ، والفقر •

وقد كانت هى سنة الله : أن الذين يؤمنون برسالة أى رسول كانوا من الضعفاء • أى كانوا من الفقراء والمحرومين • فيحكى القرآن على لسان وجهاء قوم نوح فى وصفهم للمؤمنين بنوح ، فى قوله تعالى :

« **فقال الملأ الذين كفروا من قومه**

ما نراك الا بشرا مثلنا ،

وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا ، بادى الرأى

وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين » (٢) •

فجعلوا من أسباب امتناعهم عن الايمان برسالة نوح : أن المؤمنين به لم يكونوا من الأثرياء والوجهاء •• لم يكونوا من علية القوم والزعماء •

ويقول القرآن كذلك فى شأن المبالغة فى تقدير الاقتصاد ، على عهد المادية أو الجاهلية قبل بعثة المصطفى عليه السلام :

« **ألهاكم التكاثر • حتى زرتم المقابر** » (٣) •• أى تكاثر

---

(١) آل عمران : ١٢٣ • (٢) هود : ٢٧ •
(٣) التكاثر : ١ ، ٢

الأموال والأعداد · فلا تعرفون الا التنافس فى القوة المادية · وهى قوة الاقتصاد ، وقوة الكم فى الموجودات ·

ويقـول :

« **ويل لكل همزة لمزة · الذى جمع مالا وعدده · يحسب أن ماله أخلده** » (١) ·· فيندد بهم ،لأنهم يعنون فقط بالمادة ، ويتركون السلوك الانسانى الكريم · اذ هم همزة لمزة ·· أى عيابون فى حق الآخرين ·

والمبالغة فى قيمة الاقتصاد تحمل على الشح والبخـل · أو على الأقل : تحمل على ايثار الذات فى انفـاق المـال ، وأصحاب الحاجة :

« **أرأيت الذى يكذب بالدين · فذلك الذى يدع اليتيم · ولا يحض على طعام المسكين** » (٢) ··

·· كما تحمل على التندر والسخرية من خالق الكون كله :

« **واذا قيل لهم : أنفقوا مما رزقكم الله ، قال الذين كفروا للذين آمنوا : أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ، ان أنتم الا فى ضلال مبين** » (٣) ·

* * *

● الاسلام يضع الاقتصاد فى خدمة الانسان :

الاسلام ينظر الى « الاقتصاد » على أنه عامل رئيسى فى حياة الانسان · ولكنه لا يفضل الانسانية فى قيمها العليا ، كما لا ينبغى له : أن يطغى على الروابط بين الانسان والانسان ·

---

(١) الهمزة : ١ ــ ٣ (٢) الماعون : ١ ــ ٣

(٣) يس : ٤٧

يقول القرآن فى قيمة الاقتصاد :

« **المال والبنون زينة الحياة الدنيا ،**

والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا ، وخير أملا » (١) ••

فيعلن أن قيمة المال لا تقل عن قيمة العصبية المادية فى الاولاد • وهى قيمة تجعل منه ومن الاولاد زينة الحياة الدنيا • ولكنه هنا فى الوقت نفسه لا يضع قيمة الاقتصاد فى مستوى القيم الانسانية التى تنبثق عنها الاعمال الانسانية الكريمة • وهى ـ كما يسميها القرآن هنا ـ بالباقيات الصالحات • فالاعمال الانسانية الكريمة فى آثارها على الانسانية : باقية على ممر التاريخ • بينما المال قد يكون أثره محدودا •

ويقول أيضا ، منددا بمن يحرم الانتفاع بالمال :

« **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ،**

« **قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة** » (٢) ••

ففضلا عن تنديد القرآن هنا بمن يحرم الاستمتاع بالمال ، فانه يعلن اباحته فى الحياة الدنيا للمؤمنين بالله ، على أن يكون فى الآخرة وقفا عليهم وحدهم ، دون غيرهم • فأباح الاستمتاع بالاقتصاد فى حياة الانسان الدنيوية، لأنه لا يمكن الاستغناء عنه • ولو حرمه لكان متجاهلا قيمه تماما • ومن ثم يكون مخالفا لواقع الأمر •

---

(١) الكهف : ٤٦ • (٢) الاعراف : ٣٢ •

ولكن عندما جعل الاسلام : هداية الله هى الرباط بين المؤمنين ، بعضهم ببعض ، فى قول الله تعالى :

« واعتصموا بحبل الله جميعا ، ولا تفرقوا ،

واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء،فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته أخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » (١) ..

وضع القيم الانسانية فى موضع أسمى من العلاقات المادية والروابط الاقتصادية . اذ فضل العلاقات على أساس القيم الانسانية : تماسك الأمة والمجتمع ، بينما الترابط على أساس قبلى ـ وهى علاقة مادية ـ أو على أساس اقتصادى ، الى الفرقة ، فالخصومة ، فالفناء .

وهنا ابتدأ الاسلام ينظر الى القيم الانسانية على أنها أرفع مستوى من القيمة الاقتصادية . ومهمته اذن منذ الآن أن يعيد فى رسالته : التوازن بين النوعين من القيم : يخفف من غلواء الاقتصاد واستعلائه فى نظر المادية ، ويضعه فى حجمه الواقعى . وفى الوقت نفسه يرفع من القيم الانسانية التى أهدرتها المادية وكادت تلغيها تماما .

فأعلن : أن الاقتصاد فى خدمة الانسان ، وليس سيده ، وأن له أثرا فى حياته ، ولكنه غير خالق له .. أعلن ذلك فى قول الله تعالى :

« خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين .

والأنعام خلقها ،

لكم فيها دفء ، ومنافع ، ومنها تأكلون .

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

ولكم فيها جمال حين تريحون ، وحين تسرحون •

وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ،

ان ربكم لرؤوف رحيم •

والخيل ، والبغال ، والحمير ، لتركبوها وزينة ،

ويخلق ما لا تعلمون •

وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم اجمعين •

هو الذى أنزل من السماء ماء ، لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون •

ينبت لكم به الزرع ، والزيتون ، والنخيل ، والأعناب ، ومن كل الثمرات ،

ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون •

وسخر لكم الليل والنهار ، والشمس ، والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ،

ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون •

وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ،

ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون •

وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون •

وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وأنهارا ، وسبلا لعلكم تهتدون •

وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون » (١) ..

.. تعلن هذه الآيات : كيف أن الانسان وقد خلق من نطفة من ماء مهين يصبح خصما واضحا للحق فينكر الله .. ويطغى بالاقتصاد ويبالغ فى قيمته .. ويعبد أوثانا من دون الله . كما تعلن : أن جميع الثروات : الحيوانية ، والزراعية والمائية فى خدمة الانسان ومنفعته .. وأن الكواكب .. وكذلك البحار ، والأنهار ، والجبال ، وجدت أيضا لخدمة الانسان . ثم يعبر فى آية أخرى تعبيرا واضحا عن أن جميع جوانب الاقتصاد هى فى خدمة الانسان ، فى قوله تعالى : « **وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** » (٢) .. فجعل كل ما فى الكون من نعم مادية فى سخرة الانسان .

نعم القرآن يسوق مثل هذه الآيات للتدليل على وحدانية الخالق . ولكن فى الوقت نفسه تكشف هذه الآيات من جانب آخر : على أن هناك فى محيط الانسان نعما كثيرة ممثلة فى جوانب عديدة من الاقتصاد ، هى فى خدمة الانسان وسخرته . ومع ذلك لا يشكر الانسان ... الخالق لها بالاعتراف بالايمان به .

وباعلان القرآن هنا : أن جميع جوانب الاقتصاد فى سخرة الانسان ومنفعته : يشيد بالانسان وبقيمة العليا ، ويرفع من منزلته فى مواجهة الاقتصاد . ويعيد فى نظرته : منزلة الاقتصاد .. ومنزلة الانسان ، الى ما يجب أن تكون عليه .

***

---

(١) النحل : ٤ ـ ١٦ . (٢) الجاثية : ١٣ .

● تحريم الوسائل التي تبقي على طغيان الاقتصاد :

والاسلام لا يقف عند حد نظرته الى القيم الانسانية •• ونظرته الاخرى الى الاقتصاد ، على نحو ما ذكر • وانما يسلك منهجا في تعاليمه : يحقق اعادة التوازن بين الطرفين • أو بعبارة أخرى يحقق الخفض من غلواء الاقتصاد وطغيانه ، كما يحقق رفع المنزلة للقيم الانسانية • وكخطوة أولى يتخذها في هذا المنهج : تحريم الوسائل التي تبقى على قيمة الاقتصاد في طغيانه على النفوس ، في مواجهة القيم الانسانية •

فلكي يدفع الطغيان عن قيمة الاقتصاد :

١ ـ **يحرم الربا** • وهو البيع عند عدم المماثلة في الوزن، أو في الكيل ، أو هو بيع الحال بالمؤجل ، في أمور معينة ومحددة على سبيل الحصر • وهى تلك التى جاءت في حديث عبادة بن الصامت ، والتى تعتبر قوام حياة الانسان ، أى انسان :

« الذهب بالذهب •• والفضة بالفضة •• والبر بالبر •• والشعير بالشعير •• والتمر بالتمر •• والملح بالملح : مثلا بمثل ، سواء بسواء ، يدا بيد ، « فاذا اختلفت هذه الاصناف فبيعوا كيف شئتم ، اذا كان يدا بيد » ••

•• فالنقد ، ممثلا في : الذهب والفضة ، والطعام ممثلا : في القمح ، والشعير ، والتمر ، والملح ، كلاهما ـ أى النقد والطعام ـ أساس الاقتصاد ، وعليهما تتوقف حياة الانسان •

ولذا : لا يجوز بيع ذهب بذهب ، ولا بيع فضة بفضة ، ولا بيع بر ببر ، ولا بيع شعير بشعير ، ولا بيع تمر بتمر ، ولا بيع ملح بملح ، الا اذا توفر في هذا البيع أمران :

المماثلة فى الوزن ، أو فى الكيل ،

والفورية فى التسليم ٠

فاذا تأجل تسليم أحد الطرفين فى عقد البيع ، أو اذا كان أحد الطرفين فى العقد غير مماثل للآخر : كان العقد منطويا على ربا ٠ أى منطويا على امتياز للبائع أو المشترى ٠ والامتياز لأحدهما يفسح مجالا لظلم الآخر ، دون أن يكون هناك مبرر للميزة التى حصل عليها أحد طرفى العقد ٠ فليس هناك نشاط بشرى ، كما أنه ليس هناك فرق فى النوعية يبرر الحصول على هذه الميزة ٠

وجاء تحريم الربا فى القرآن الكريم ، فى قول الله تعالى :

« وأحل الله البيع ، وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار ، هم فيها خالدون » (١) ٠٠

والحصول على الميزة لو تكرر ، يؤدى الى الاخلال بالتوازن فى ملكية احدى الدعامتين للاقتصاد ، أو لهما معا ٠ وهما دعامتا النقد ٠٠ أو الطعام ٠ والاخلال بالتوازن فى ملكية أى منهما أو فيهما معا ، يؤدى ـ على الاقل ـ الى الاحتكار من قبل صاحب الأكثرية فى الملك ٠ واحتكار النقد الممثل فى : الذهب والفضة ، وكذلك احتكار الطعام الممثل فى : البر ، والشعير ، والتمر ، والملح ، من شأنه أن يعرض الناس : اما الى المجاعة ٠٠ أو الى دفع المضطرين الى قبول سعر أعلى يفرض عليهم فرضا ٠ وفى هذا ٠٠ وفى ذلك : ظلم ، وطغيان بالاقتصاد ٠

---

(١) البقرة : ٢٧٥ ٠

وقد كان الربا هو السبيل فى تكوين ما يسمى بالرأسمالية ونظام الحكم السائد له فى أوروبا • وتتجسم الرأسمالية فى البنوك ، وفى القروض التى تقدمها للتجارة والصناعة ، وفى الفوائد التى تتقاضاها عنها • وعندما سادت الرأسمالية خضعت سياسة العالم للاقتصاد ، وتحولت الاتجاهات فيه الى اتجاهات مادية ، كما تحولت السيادة فى الاقتصاد الى فئة قليلة من أصحاب رؤوس الأموال ، يمكن أن تفعل بالبشرية ما تشاء •

وعن مقاومة الرأسمالية ، وسيادة أصحاب رؤوس الأموال من الافراد القليلين ، نشأت الاشتراكية الماركسية كما صاحبها النظام السياسى المساند لها • وهو نظام الحزب الواحد والاشتراكية الماركسية هى فى واقعها رأسمالية • ولكنها رأسمالية الدولة يباشرها قادة الحزب الشيوعى فى الدولة الماركسية •

والتحكم الى السياسة والتوجيه ، عن طريق رأسمالية الافراد • أو رأسمالية الدولة ، وتحولها الى مادية طاغية : هوى بالعالم اليوم الى المادية أو الجاهلية ، التى جاء الاسلام بالأمس ليحرم الربا فيها ، كعلة رئيسية فى طغيان الاقتصاد على القيم الانسانية •

٢ – ويحرم أكل أموال الناس بالباطل :

فحرم الاحتكار •

وحرم الغصب •

وحرم السرقة •

•• وجاء تحريم أكل أموال الناس بالباطل ، بصفة عامة، فى قول الله جل شأنه :

« يا أيها الذين آمنوا : لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل، الا أن تكون تجارة عن تراض منكم » (١) ••

•• فما لم يكن الحصول على المال ناتجا عن رضا متبادل، وهو ما عبر عنه هنا بالتراضى ، وما لم يكن فيه نشاط بشرى ومجهود للانسان ، وهو ما عبر عنه بالتجارة : يكون هذا الحصول أكلا بالباطل للمال • وهنا : كان الاحتكار حراما لأنه ليس فيه تراض على الأقل • كما أنه يعود الى تخزين السلعة ومنع تداولها للبيع فترة من الوقت ، أو التحكم فيما يعرض منها للبيع • وليس هذا نشاطا انسانيا ، لأنه يخلو تماما من أية قيمة انسانية • وهنا كذلك : كان الغصب •• وكانت السرقة حراما • لان أيا منها بعيد عن التراضى •

٣ ـ **ويحرم رشوة الحاكم** ـ قاضيا أو غير قاض ـ كى يستولى الراشى عن طريق نفوذ الحاكم على بعض أموال الناس بغير حق وبغير عدل • وجاء تحريم ذلك فى قول الله تعالى :

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها الى الحكام ، لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم ، وأنتم تعلمون » (٢) •• فمهد لتحريم الرشوة هنا فى الآية : بأن جعلها أكلا للأموال بالباطل • ثم نص على أن مباشرتها استيلاء على نصيب من أموال الآخرين بالاثم • أى بالعصيان، والاعتداء ، والظلم •

---

(١) النساء : ٢٩ • (٢) البقرة : ١٨٨ •

والحكم فى المجتمع اذا استخدم فى سبيل المخالفة لما يأمر به ، أو ينهى عنه الله : يصبح حكما فاسدا يقوض المجتمع ويحيل الترابط فيه بين الافراد : الى ترابط بين القوى والضعيف • القوى هو من يسانده الحاكم من أجل المال • والضعيف من يفقد هذا السند لفقده المال • ويؤول الأمر الى : طغيان الاقتصاد وسيطرته على توجيه الحكم ، واضعاف شأن القيم الانسانية فيه •

٤ ــ **ويحرم استضعاف الضعيف** ، وأكل أمواله بسبب ضعفه • وقد كان استضعاف الضعيف شائعا فى العهد الجاهلى قبل الاسلام • يحكى القرآن عن عادة الجاهليين فى استضعاف اليتيم فى قول الله تعالى :

«كلا بل لا تكرمون اليتيم» (١) •• ومعنى أنهم لم يكونوا يكرمون اليتيم : أنهم كانوا لا يرعون فيه حقا انسانيا • أنهم لم يكونوا يرعون فيه ضعفه ، ويستخدمون الرحمة معه • وكذلك تسود هذه الظاهرة ــ وهى ظاهرة استضعاف الضعيف ــ كلما ساد أثر الاقتصاد على النفوس ، وأصبح يعلو القيم الانسانية فى المجتمع فى أى وقت •

فقد وجه القرآن الأمر الى الذين أسلموا على عهد الرسالة من أولئكم الماديين ، بأن يسلموا اليتامى أموالهم ، دون تباطؤ أو مراوغة ، فقال : « **وآتوا اليتامى أموالهم** » (٢) ••

ونهاهم عن أن يأخذوا الجيد منها ، على أن يعطوا ما هو أقل جودة • فقال : « **ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم** » (٢) ••

---

(١) الفجر : ١٧ •   (٢) النساء : ٢ •

• ثم حكم على تأخير تسليم مال اليتيم اليه •• وعلى أخذ الجيد من ماله بدلا من الخبيث الذى يعطى له •• وعلى ضم ماله الى مال الوصى عليه بدون مقابل : بأن أى واحد منها يمثل ظلما كبيرا ، فقال :

« انه كان حوبا كبيرا » (١) ••

بل يطلب ، فوق ذلك ، الى الأوصياء على أموال اليتامى: أن يتعففوا عن أخذ مقابل لمباشرتهم أمر مال اليتيم بالتنمية ، والمحافظة عليه ، اذ كانت لدى هؤلاء الأوصياء : استطاعة ذاتية ، وعدم حاجة الى مال الغير • فاذا لم تكن لهم تلك الاستطاعة فليأخذوا من مال اليتيم الذى هو تحت اشرافهم: ما يمثل المتعارف عليه عادة فى الاشراف على ماله ، دون طمع فيه • فيقول :

« ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف » (٢) •

•• ثم يحسم الأمر حسما واضحا فى شأن انتهاك حرمة مال اليتيم ، فيقول :

« ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا ، وسيصلون سعيرا » (٣) ••

•• وبذلك يبعد طغيان الاقتصاد على القيم الانسانية : كالرحمة بالضعيف هنا • ومعنى طغيان الاقتصاد : أن يكون

---

(١) النساء : ٢ (٢) النساء : ٦
(٣) النساء : ١٠

أثره على النفوس فى تصرفاتها وسلوكها ومواقفها ، أقوى من تأثير القيم الانسانية عليها • وطغيان الاقتصاد ينتهى دائما الى تأثر الناس به ، دون مراعاة لأية قيمة انسانية • وليس له من معنى سوى : أن يغلب جانبه فى انجذاب الناس اليه ، وانحيازهم لأثره ، وايثارهم اياه فى المعاملة • ولذا كان تحريم القرآن هنا لأكل مال اليتيم : مشددا ، ومفصلا •

ويندد القرآن أيضا بأكل ميراث الضعيف : كالصبى •• والمرأة • وقد كانا مستضعفين فى العهد الجاهلى – وهو العهد الذى يطغى فيه الاقتصاد • فيقول :

« **وتأكلون التراث أكلا لما** » (١) ••

•• أى تأكلون الميراث من غير تمييز فى الحقوق • وتعتبر المماطلة فى تسليم الميراث الى مستحق له ، فى حكم أكله المندد به هنا • ولا شك أن أكل ميراث الضعيف ، أو المماطلة فى تسليمه ، يعتبر تعبيرا عن تغليب جانب الاقتصاد على القيم الانسانية • وبالتالى يعتبر تعبيرا عن طغيانه •

كما يحرم القرآن بالنسبة للمرأة – وهى مستضعفة بحكم عواطفها – أن تحمل على ترك ارثها كرها • وقد كان ذلك شائعا فى الجاهلية • فيحملها أخوها مثلا ، أو أخ زوجها المتوفى عنها : على التنازل عن ميراثها ، فى مقابل : أن لا يقف أى منهما فى طريق زواجها بمن تريد أن تتزوجه • والقرآن يقول فى تحريم ذلك •

«**يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها**»(٢) •

•• كما يحرم : أن يمسك الزوج بزوجته فى عدة طلاق

---

(١) الفجر : ١٩ • (٢) النساء : ١٩

رجعى ، عندما تقترب العدة على الانتهاء ، كى يحملها على التنازل له عن جزء من صداقها • ويسمى القرآن هذا الامساك : عضلا • كما جاء فى قوله :

«ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن » (١) ••

•• ولا شك أن امساك الزوج لزوجته هنا ، باعادتها الى عصمته من جديد ، مع الرغبة منه فى عدم استمرار معاشرتها : يدل على طغيان قيمة الاقتصاد فى نفسه ، وعلى سلوكه ، وتغليبه على القيم الانسانية فى معاملته اياها ، كقيمة الرحمة والشفقة على وضعها الذى أوضعها فيه • فهى تكره على المعاشرة ، مع أنها غير مرغوبة منه • وقد صرح القرآن فى آية أخرى : بأن هذا الوضع للزوجة ، الذى وضعها الزوج فيه ، هو وضع : المعتدى عليه ، ووضع من يقع عليه الضرر • فيقول :

« ولا تمسكوهن ضرار لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه » (٢) ••

٥ - ويحرم تطفيف الكيل والوزن فى التجارة • وذلك عندما ينذر المطففين : بالويل والعذاب فى جهنم • فيقول :

« ويل للمطففين •
الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون •
واذا كالوهم ، أو وزنوهم يخسرون •

---

(١) النساء : ١٩ • (٢) البقرة : ٢٣١ •

ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون • ليوم عظيم » (١) ••

•• والعلة هنا فى تحريم تطفيف الكيل والميزان فى التجارة هى ذات العلة فى تحريم كل وسيلة تؤدى الى طغيان الاقتصاد ، بحيث تذهب فاعليته بكل قيمة انسانية فى الترابط بين الناس • فالتطفيف هنا ـ أو الغش التجارى ـ يذهب بقيمة العدل فى المعاملات التجارية ، فضلا عن قيمة الرحمة بالضعيف وهو هنا فى العقد صاحب الحاجة •

***

• فصل قيمة الاقتصاد عن قيمة الانسان :

وكخطوة أخرى فى منهج الاسلام لتحقيق اعادة التوازن بين قيمة الاقتصاد والقيم الانسانية،يكشف عن الوضع الطبيعى لقيمة الاقتصاد • وهى قيمة لا تضيف شيئا الى المستوى الانسانى فى الانسان • هى قيمة منفصلة تماما عن هذا المستوى الإنسانى • على معنى أن الانسان تقدر قيمته بمدى درجته فى هذا المستوى ، وليس بمدى ملكيته فى الاقتصاد ، ولذا ثراء الكافر بالقيم الانسانية ، والواقع تحت تأثير الاتجاه المادى فى طغيان الاقتصاد ، لايمنحه شيئا فى قيمته الذاتية • وبذلك لا يفضل المؤمن غير الثرى الذى يسلك السلوك الانسانى الكريم • بل على العكس : هذا الأخير يفضل ذاك •

وعندما يتحدث القرآن عن فتح مجال الاقتصاد أمام الكافر فى الدنيا وعدم احتجاب الرزق عنه مهما بلغ ، رغم كفره ، فيقـول :

« من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا •

---

(١) المطففين ١ ـ ٥ •

ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكورا .

كلا نمد ، هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا .

انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ،

وللآخرة أكبر درجات ، وأكبر تفضيلا » (١) ..

.. عندما يفتح القرآن مجال الاقتصاد أمام الكافر على هذا النحو ، رغم كفره ــ وربما يكون حظه فيه أفضل من حظ المؤمن ــ فان القرآن يسعى الى أن يرفع المبالغة عن قيمة الاقتصاد ، وأن يعيد اليه القيمة الحقيقية التى يراها له ، كرسالة تقوم أولا وبالذات على الروابط الانسانية ، قبل الروابط الاقتصادية .

فما جاء فى هذه الآيات هو موازنة فى التقييم بين العامل الاقتصادى ، والعامل الانسانى . واذا كان العامل الاقتصادى يتمثل فى كل ما هو مادى فى الثروة والملك ، فالعامل الانسانى ينبثق عن القيم الانسانية : فى الايمان بها ، وفى تطبيقها . وبالأخص : قيم العدل .. والاحسان .. والرحمة .. والتعاون .. والتواد .. والتحاب ..

ومن الموازنة يستخلص القرآن هنا :

أنه يؤثر العامل الانسانى : « **انظر : كيف فضلنا بعضهم على بعض** » (أى فى الاقتصاد . اذ ربما يكون الكافر أكثر حظا فيه من المؤمن) **وللآخرة أكبر درجات ، وأكبر تفضيلا** » (وهذا الجزاء الأكبر فى الآخرة هو للمؤمن . أى هو لصاحب العامل الانسانى ، وليس لصاحب الحظ الأوفر فى الثراء) .

---

(١) الاسراء : ١٨ ــ ٢١ .

وبايثار القرآن : العمل الانسانى على الاقتصاد ، وابعاد الاقتصاد عن أن يكون له أثر فى قيمة الانسان ، تتضح قيمة الاقتصاد فى ذاته ٠ وهى قيمة تبعده كل البعد عن أن يؤله ٠٠ أو عن أن يجعل : أنه العامل الأول والأخير فى الحضارة ٠٠ أو عن أن يكون التقدم الإنسانى رهنا بتوفره ٠٠ أو عن أن يكون التخلف عن ركب التقدم ، كما يقال ، مرتبط بالفقر وضعف الاقتصاد ٠

ولابد أن نشير هنا الى أن « الحضارة » ليست نوعا واحدا ٠ وانما هى حضارة مادية ٠٠ وأخرى انسانية ٠ أى تمثل القيم الانسانية ٠ فاذا كانت الحضارة المادية : الصناعية والتكنولوجية وقفا على ازدهار الاقتصاد فان الحضارة الانسانية ، وهى حضارة القيم العليا فى المجتمع أو فى الأفراد، لا تتوقف الا على الايمان بوحدة الألوهية وعلى الرسالة التى تقوم على هذا الايمان ٠ وهى رسالة تدعو الى :

العـــدل ،

والاحسان ٠ وهو صنع انسانى فوق العدل ٠ العطاء فيه ليس له مقابل ٠

ورعاية حق أولى القربى فى الاسرة ، فى سد الحاجة ٠

والابتعاد عن الظلم ٠٠ والجرائم الاجتماعية ، وهى الزنا ، والقتل ، والسرقة ٠

والقرآن يقول فى ذلك :

« ان الله يأمر بالعـدل ،

والاحسان ،

وايتاء ذى القربى ،

وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » (١) ..
وكذلك تدعو هذه الرسالة الى :
أداء الواجبات .
وقد سماها القرآن : « أمانات » فى قول الله تعالى :
« ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها » (٢) ..
فهذه الرسالة تنظر الى الافراد على أن كلا منهم يحمل مسئوليته الخاصه .. تنظر اليهم على أنهم ذوات مستقلة يتصل بعضهم ببعض عن طريق الرباط بالقيم الانسانية وحدها : ايمانا ، وتطبيقا معا : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » (٣) .. كما تنظر الى المجتمع القائم على العلاقات الانسانية بينهم : على أنه مجتمع واجبات . أى يؤدى كل فرد فيه واجبه . فاذا أديت هذه الواجبات وصلت الحقوق الى أصحابها ، دون عناء .

وعهد الرسالة الاسلامية كان يمثل حضارة انسانية ، وان كان مجتمعه من الناحية الاقتصادية ليس مجتمعا صناعيا ولا تكنولوجيا . بل كان مجتمعا زراعيا بدائيا .
واذا قيل : انه كان مجتمعا حضاريا انسانيا ، يراد بذلك أن الروابط بين الافراد فيه كانت روابط انسانية ، قبل أن تكون روابط اقتصادية .. وأن قيمة الاقتصاد لم تلعب دورا فى حضارته . والروابط الانسانية فيه هى التى حققت معنى

---

(١) النحل : ٩٠ .   (٢) النساء : ٥٨ .
(٣) حديث صحيح .

الاحسان فى ترابط أفراده ، بعد العدل الذى يعد مقدمة له ٠ وليس هناك من جهة أخرى أدل على أن الترابط فى المجتمع ترابط انسانى من وجود معنى الاحسان فيه ٠ فالاحسان هو عطاء من انسانية الانسان : ممثلا : فى مال ٠٠ أو فى علم ٠٠ أو فى مهنة ٠٠ أو فى قوة ٠٠ أو فى جاة وسلطة ٠٠ الخ ، الى صاحب حاجة أو الى المجتمع ، دون مقابل مادى أو معنوى٠

وكذلك حديث القرآن مرة أخرى عن عدم احتجاب الاقتصاد فى الدنيا عن غير المؤمن بالقيم الانسانية ، فى قول الله تعالى :

« **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ٭ ولبيوتهم أبوابا وسررا ، عليها يتكئون ٭ وزخرفا ؛ وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين** » (١) ٠ (أى لأولئكم الذين يتقون الاستسلام لمتاع الحياة الدنيا ٠ وهو متاع مادى) ٠٠

٠٠ يكبر من شأن العامل الانسانى ٠ اذ يجعل الجزاء الأخروى ــ وهو جزاء أفضل عند الله ــ لمن كان عمله فى الدنيا عملا انسانيا ٠

٠٠ أى لمن استطاع أن يبعد نفسه عن التأثر بالعامل الاقتصادى فيما يصنعه ، وفيما يأتى به من أفعال ٠ ففعله ، وما يصنعه : صادر عن غير أنانية متمكنة منه ٠٠ صادر عن مشاركة للآخرين ٠

---

(١) الزخرف : ٣٣ ــ ٣٥ ٠

وما يقال من أن طبائع الناس ، وأسلوب تفكيرهم فى كل مجتمع هى وليدة ظروفه الاقتصادية : ليس له سند من تاريخ . فخلق الرسول عليه السلام كان القرآن ، وتطبيق مبادئه . ولم يكن وليد الظروف الاقتصادية التى عاشها . فكان على خلق عظيم . ومع ذلك كانت ظروفه الاقتصادية قاسية ،وكانت معيشته شاقة . وكذلك أسلوب التفكير للمسلمين على عهد الرسول عليه السلام ، وعهد الخلفاء الراشدين ، كان أسلوبا انسانيا . ومع ذلك لم تكن أحوال الغالبية منهم فى الاقتصاد أحوالا مزدهرة . بل كان الكفاف فى المعيشة يسود حياتهم .

وكذلك ما يقال : من أن ارتقاء الانسان ماديا وروحيا رهن بحالته الاقتصادية : فالمتخلف ماديا لا يمكن أن تكون له حضارة .. والجائع والمحروم لا يمكن أن تتوقع منه خلقا رفيعا أو أسلوبا طيبا .. ما يقال على هذا النحو تكذبه حضـــارة الاسلام من جانب . وحضارة الروم والفرس من جانب آخر . فالحضارة الأخيرة كان يسندها الاقتصاد . ومع ذلك لم يكن خلقها رفيعا ، ولا أسلوبها فى السلوك والمعاملة طيبا . بينما الحضارة الأولى كان يسندها الايمان دون الاقتصاد . ومع ذلك هى التى وقت البشرية وأنقذتها من شرور الحضارة المادية وفساد مجتمعاتها ، اذ ذاك .

وما يقال من الفرق بين المجتمع الزراعى واستسلام العامل فيه .. وعن المجتمع الصناعى وطموح العامل فيه طموحا مكافحا، أيضا يكذبه الواقع المشاهد فى المجتمعات الشيوعية . فالعمال هناك فى الصناعة والزراعة متواكلون ، وسلبيون . ولولا الدفع بالسياط ما كان هناك انتاج صناعى أو زراعى على الاطلاق .

***

● **التنويه بقيمة العمل الانسانى :**

وكما تكون اعادة التوازن بازالة الغلو والمبالغة فى قيمة الاقتصاد : تكون أيضا بالتنويه بعمل الانسان ورفع شأنه • بحيث لا يكون عمل الانسان ذاته أدنى من سبب الملكية فى استحقاق المنفعة فى الاقتصاد • وعندئذ يكون العامل بعمله صاحب حق فى الانتفاع بالاقتصاد ، كالمالك بملكه فى استحقاقه الانتفاع به •

يقول جل شأنه :

« **نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ،**

ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ،

ورحمة ربك خير مما يجمعون » (١) ••

•• ويعلن بهذا القول : أنه سبحانه هو الذى قسم المعيشة فى هذه الحياة الدنيا بين الغنى والفقير •• وأن هناك أمرين يجب أن يعتبرهما الانسان ، ويأخذ بهما شأن نفسه فى هذه الحياة :

الأمر الأول:أن جزاء الله فى الآخرة بالرحمة للمؤمنين ، وهو المصدق برسالة الله ، والذى يعبر عمله عن ايمانه • أفضل بكثير من الاموال التى يجمعها غير المؤمن ، وهو الذى يطغى بماله على كل قيمة انسانية فى حياته •

الأمر الثانى : أن الغاية من تفاوت الملكية فى الاقتصاد، فى قول الله تعالى : « **ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات** »

---

(١) الزخرف : ٣٢ •

(أى فى الملكية) •• ليست إيجاد طبقة تتميز بالثراء وتحتكر الترف ، كما هو الوضع فى النظام الرأسمالى • وانما الغاية من تفاوت الملكية فى نظر الاسلام هى فى امكان توظيف العامل وايجاد فرص العمل ، وأداء الخدمات ، لمن يملكون الطاقة على العمل ولا يملكون المال •

ومنفعة الاقتصاد ، أو الملكية المادية فى نظر الاسلام هى اذن : لصاحب العمل الذى يملك •• وللعامل صاحب الطاقة على العمل الذى لا يملك ، معا • وقيمة العمل فى استحقاق المنفعة لا تقل عن سبب الملكية فى هذا الاستحقاق : « **ليتخذ بعضهم بعضا سخريا** » •• أى أن الغاية من رفع بعض الناس فوق بعض فى الملكية هو لاستخدام من يملك طاقة العمل ومعاونته على مباشرة العمل بالفعل • وليست للترف والعبث بالمال فيما حرمه الله •

وهذه الآية جمعت بين هدفى الرسالة الاسلامية :

١ ـ أن تعيد للقيم الانسانية منزلتها ، فترفع من شأن العمل المنبثق عنها أو المتلائم معها • وهو ما اعتاد الاسلام أن يسميه « بالعمل الصالح » • وتعرضت الآية لذلك عندما أعلنت : أن جزاء الله بالرحمة فى الآخرة لصاحب المستوى الانسانى فى الدنيا أفضل مما يجمعه المادى أو اللاانسانى من ثروات فى دنياه : « **ورحمة ربك خير مما يجمعون** » •

٢ ـ وأن تعود بقيمة الاقتصاد الى الحجم الحقيقى لهذه

القيمة : فتزيل القداسة ، وترفع الغلو فى اعتبار هذه القيمة أنه مصدر وحيد للانسان : فى تطوره .. وفيما له من ملكات .. وفى ايجابياته .

ولكى يؤكد الاسلام : حق العامل ، كالمالك ، فى منفعة الاقتصاد ، أصل ذلك على مبدأ : « الاستخلاف » فى الملك .
ومعنى الاستخلاف : أن الاقتصاد يعود فى ملكيته الحقيقية الى الله .. وأن الانسان مستخلف فقط عليه من الله ، ومفوض من قبله فى انمائه .. وفى انفاقه .

والانسان من أجل ذلك مرتبط فى انماء الاقتصاد ، وفى انفاقه ، على السواء : بتوجيه الله وحده فى هذا الشأن ، أو فى ذلك : فهو فى الانماء مرتبط بتجنب الوسائل التى كانت تستخدم فى الجاهلية ـ وتستخدم كذلك فى كل عصر مادى ـ لزيادة الاقتصاد . وهو فى الانفاق مرتبط بحد « الاعتدال » .. وبتجنب « التبذير » .. وبتجنب « السفه » فى الانفاق الشخصى .. وبأداء حق الله فيه ، وهو ما أوجبه فى عبادة الزكاة .. وما يذصح به زيادة على ذلك فى مستوى الاحسان .
وجاء التعبير عن مبدأ « الاستخلاف » فى قول الله تعالى :

« وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ،
فالذين آمنوا ، وأنفقوا لهم أجر كبير » (١) ..

---

(١) الحديد : ٧ .

•• فالآية تطلب من أصحاب الملك فى الاقتصاد : الانفاق فى المصلحة العامة • وهى التى تحقق مصلحة كثيرين من الافراد • ولكنها تبرر هذا الطلب : بأن ما تحت أيديهم من مال ليس ملكا لهم فى الواقع • اذ هم مستخلفون عليه فقط من الله • فالله هو المالك الحقيقى ، وهو الطالب فى الوقت نفسه للانفاق • والانسان اذن وسيط ، أو مفوض فى توجيه الاقتصاد •

ويزيد الاسلام فى تأكيد حق المنفعة العامة بين المالك والعامل أو غير المالك صاحب الحاجة ، فى الملكية الخاصة ، أو الملكية المستخلف عليها ، بقوله جل شأنه :

« والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ،

فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم ،

فهم فيه سواء ،

أفبنعمة الله يجحدون ؟ » (١) •

•• فتصرح الآية بحقيقتين :

الحقيقة الأولى ـ أن هناك تفاوتا فى الملكية لا شك فيه ، وهى التى تسميها الآية بالرزق ، وأن هذا التفاوت لابد منه • فهو قانون من قوانين الحياة الاجتماعية •• وضرورة لمصلحة

---

(١) النحل : ٧١ •

المجتمع نفسه ، ولمصلحة الأمة ككل : « **والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق** » .

والحقيقة الثانية ـ أن الذى لا يملك المال ، ويمتنع حتى أن يدخل المال فى ملكه : كالأرقاء ، يستوى فى الانتفاع بالاقتصاد الذى هو بيد سيده « **فهم فيه سواء** » . والتساوى ليس طبعا فى الملكية . لأن الرقيق لا يملك . وانما هو فى منفعة المال الذى هو بيد سيده وما ينفقه السيد اذن على رقيقه وهو فى خدمته : ينفقه من حق هذا الرقيق فى منفعة الاقتصاد . وليس من نصيب السيد فى هذه المنفعة : « **فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم** » ..

واذا كانت رسالة الاسلام رسالة مزدوجة :

من جانب : تعود بقيمة الاقتصاد الى الحجم الحقيقى لها .

ومن جانب آخر : ترفع من شأن القيم الانسانية ، لاعادة التوازن بينها وبين قيمة الاقتصاد .. فان قيمة العمل البشرى بين هذه القيم الانسانية ، توليها أهمية كبيرة .

فالاسلام عندما يدعو الى السعى نحو العمل ، وفى الوقت ذاته يطلب الاعتماد والتوكل على الله فى الرزق أو فى نتيجة العمل ، لم يكن الهدف : أن يجعل الساعى متواكلا عليه . وانما ليحفزه فقط على العمل ، بطلب توكله عليه . فالله اذ يطلب من الانسان عند السعى الى العمل : أن يستند اليه ، يعلم مدى

الضمان الذى يقدمه اليه فى الحصول على نتائج ايجابية منه العمل الذى يباشره ، اذا استنفذ فيه : مقدمات « التوكل » على الله • وهى :

التفكير القائم على التحليل ، والترجيح ،

ثم الارادة والتصميم على تنفيذ الراجح ،

وتقول الآية فى هذا الشأن :

« وشاورهم فى الأمر ،

فاذا عزمت فتوكل على الله ،

ان الله يحب المتوكلين » (١) ••

•• فالعزم هنا مرحلة تأتى بعد مرحلتين اخريين • وهما مرحلة التفكير فى حلول المشكل القائم •• ومرحلة اختيار الراجح من هذه الحلول •

وفى دعوة القرآن الى سعى الانسان نحو العمل ، يقول تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله ، وذروا البيع ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون •

---

(١) آل عمران : ١٥٩ •

فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيرا ، لعلكم تفلحون » (١) ..

.. فالآيتان هنا تجعلان : أداء الجمعة .. والعمل من أجل الرزق ، فى مستوى واحد . ان حل وقت الجمعة كعبادة ، باعلان الأذان لها فليترك العمل من أجل الرزق . وان انتهى أداؤها . فالانتشار فى الارض والسعى فى طلب الرزق . على أن يكون السعى فى طلب الرزق مستصحبا : ذكر الله . وذلك بالتوكل عليه ، وتطبيق ما جاء فى كتاب الله خاصا بالحلال والحرام فى تحصيل الاقتصاد ، وانمائه :

فان كان تحصيله هنا عن طريق أداء العمل للغير فليؤد كاملا غير منقوص .. ومتقنا حسب الطاقة البشرية .

وان كان عن طريق التجارة فليتجنب فيه الربا ، وكل ظاهرة أخرى تعين على بقاء طغيان الاقتصاد .

واتباع ما جاء فى تحصيل الرزق من حلال ، وحرام : هى السبيل الى النجاح والفلاح .. أى هو السبيل فى طبع السعى الى تحصيل الرزق بالطابع الانسانى ، والى البعد فيه عن عبادة الاقتصاد وتأليهه .

***

---

(١) الجمعة : ٩ ، ١٠ .

● عبادة الزكاة ـ وسيادة الانسان على الإقتصاد :

وتأتى الزكاة ، كعبادة يتقرب بها المؤمن إلى الله ، لتضع المزكى فى وضع عملى يتصرف فيه على أن الاقتصاد ليس سيد الانسان • وانما ليؤكد أنه فى خدمته • فاذ يتنازل المزكى عن جزء مما دخل فى ملكه كل عام دون مقابل له سوى القربى الى الله : فان موقفه ليس موقف الشحيح • ولا البخيل ، ولا الأنانى ، كما هي عادة المادي • وانما هو موقف الإنسان فى تعاطفه مع الآخرين •• انه موقف الذي يتحكم فى الاقتصاد ، وليس موقف الذليل الخاضع له •

•• ان الزكاة تعبير عملى عن القيمة الحقيقية للاقتصاد ، وانه وسيلة ، وليس غاية والاسلام بفرض عبادة الزكاة نقل المؤمن برسالته من دائرة النظر والتوجيه الى دائرة التطبيق • فالمؤمن المزكى لا يرى الاقتصاد فى حجمه الطبيعى فحسب • وانما يمارس التصرف فيه عن رضاء نفسى ، وبحرية وارادة داخلية ، كمملوك له • وستظل هذه الممارسة للاقتصاد ، طالما الايمان قائم ، وطالما الزكاة تؤدى كعبادة •

واذا :

١ ـ أعلن الاسلام : أن الاقتصاد فى خدمة الانسان ـ وليس مصدرا لخلقه وابداعه •

٢ ـ وحرم الوسائل التى تبقى على طغيان الاقتصاد :

فيمتنع المؤمن عن استخدامها ، وبذلك تميل نفسه الى قبول قيمته فى وضعها الحقيقى ٠

٣ ـ واذا فصل بين قيمة الاقتصاد ٠٠ وقيمة الانسان، فالاقتصاد لا يضفى أية قيمة على الانسان ، وانما الانسان بقيمته الذاتية فى تحقيق المستوى الانسانى له ٠

٤ ـ واذا نوه بقيمة العمل الانسانى ورفع من شأنه ليعيد التوازن بينه وبين الاقتصاد ٠٠

٥ ـ فان عبادة الزكاة تؤدى تحقيقا للأسرة الحسنة التى ينبغى على الانسان أن يرسمها فى تعامله مع الاقتصاد ٠٠ ذلك الانسان الذى يحس بقيمته كمخلوق مكرم سخرت لحياته الأرض والسموات ٠

***

● وليس من هدف الاسلام : تحقير الاقتصاد وصرف الناس عنه :

وكل ما يهدف اليه الاسلام هو اعادة الاعتبار للانسان كمصدر للحضارة الانسانية ٠ وهى الحضارة المرتكزة على القيم العليا فى حياة الناس ومجتمعاتهم ٠٠ وكذلك اعادة الاعتبار الواقعى للاقتصاد كوسيلة لحياة الانسان ومعيشته على هذه الأرض ، وكمصدر للحضارة المادية،يخلقها الانسان بمساعدته٠ فالانسان هو العامل المشترك فى الحضارتين ٠٠

ولا يريد الاسلام ـ فيما يهدف اليه ـ أن يحطم قيمة الاقتصاد أو يحقرها ، وبذلك يدعو الناس الى الانصراف عنه ، لان الدنيا وجدت كمرحلة اختبار للانسان • والاقتصاد يمثل جانبا رئيسيا فى تكوينها :

« زين للناس حب الشهوات من النساء ،
والبنين ،
والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ،
والخيل المسومة ،
والانعام ،
والحرث ،
ذلك متاع الحياة الدنيا ،
والله عنده حسن المآب » (١) ••

•• ولم يطلب من الانسان فى مرحلته الاولى فى الحياة : أن يجعل الاسراف فى الاستمتاع بمتاع الدنيا غاية همه ، بل يؤثر عليه : العمل الانسانى الكريم الذى يمثل القيم الانسانية ، أن تعارض معه • فالامتناع مثلا عن الربا رحمة بالضعيف وهو صاحب الحاجة : ايثار لقيمة الرحمة بين القيم الانسانية ، على اغراء المال فى زيادته من غير جهد بشرى • والعمل الانسانى

---

(١) آل عمران : ١٤ •

الكريم هو رصيد الانسان فى الآخرة . وجزاء الآخرة خير من متاع الحياة الدنيا : « **والله عنده حسن المآب** » :

« **قل أونبئكم بخير من ذلكم** ،

للذين اتقوا (الاغراء بمتاع الحياة الدنيا فى مواجهة العمل الصالح) **عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها** ،

وأزواج مطهرة ،

ورضوان من الله ،

والله بصير بالعباد » (١) ..

.. فمتاع الآخرة متاع مادى كذلك . ولكن فى نوعه أنقى مما فى الدنيا . ويضاف اليه : « رضوان الله » .. أى يضاف اليه : رضاء الله عن الاستمتاع الكامل بنعيم الآخرة . إذ الاستمتاع بمتاع الدنيا مقيد من الله بعدم الاسراف فى الاستمتاع به . وآية الاسراف أن يؤثر المسرف الاستجابة الى اغراء المتع المادية ، على حساب القيم الانسانية . أى على حساب حاجة الآخرين هنا . فالاعتدال فى الاستمتاع يوفر فضلة للآخرين ، أو يحول على الأقل دون طغيان النفس بأنانيتها :

---

(١) آل عمران : ١٥ .

« يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ،
وكلوا ، واشربوا ،
ولا تسرفوا ،
انه لايحب المسرفين » (١) ..

.. فيدعو القرآن هنا الى مباشرة الزينة .. والاستمتاع بمتعة الأكل والشرب ، ولكن فى غير اسراف . اذ الاعتدال فى الزينة ، وفى الاكل والشرب هنا ، كما سبق – وهو عدم الاسراف – يوفر فضلة للآخرين ، ويحول دون طغيان النفس بما تملك من متاع .

لا يمكن أن يطلب الاسلام من المؤمن به : العمل والسعى فى سبيل الرزق ، ثم مع ذلك يحقر له تحصيل ما يطلبه بالسعى اليه . ثم ان نعيم الآخرة هو الاقامة فى « الجنة » . وحياة الجنة حياة استمتاع بمتع مادية :

« ان المتقين فى جنات ونعيم .
فاكهين بما آتاهم ربهم ،
ووقاهم ربهم عذاب الجحيم .
كلوا واشربوا ، هنيئا بما كنتم تعملون .
متكئين على سرر مصفوفة ،
وزوجناهم بحور عين .

(١) الاعراف : ٣١ .

والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ، ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شيء ،

كل امرىء بما كسب رهين .

وأمددناهم بفاكهة ، ولحم ، مما يشتهون .

يتنازعون فيها كأسا ، لا لغو فيها ولا تأثيم .

ويطوف عليهم غلمان لهم ، كأنهم لؤلؤ مكنون » (١) ..

.. فكيف يدعو الاسلام الى تحقير المتع المادية ، ويزهد فى الاقتصاد على العموم . ودعوة الاسلام فى الدنيا الى الزهد هى دعوة للمؤمن بعدم الاستسلام لاغراء الاقتصاد . كما يدعو الى عدم الافتتان بالاولاد . فدعوته الى عدم الافتتان بالاولاد لا تنطوى على كراهية لهم أو على الزهد فيهم . وانما فقط : الى الحيطة فى عدم المبالغة فى حبهم والاقبال عليهم ، خشية من فسادهم ، وعدم استطاعة مقاومة هذا الفساد لديهم .

كذلك دعوته الى اعادة التوازن بين القيم الانسانية من جانب ، وقيمة الاقتصاد من جانب آخر ، ان انطوت على رفع القيم الانسانية فهى تنطوى فقط على ازالة الغلو والمبالغة فى قيمة الاقتصاد ، وعلى العودة بقيمته الى المستوى الحقيقى لها ، وهو مستوى « الوسيلة » وليس مستوى الاله الخالق . وعلى

---

(١) الطور : ١٧ ـ ٢٤ .

اية حال لا تنطوى هذه الدعوة الى اعادة التوازن ، على التحقير لقيمة الاقتصاد ، وصرف الناس عنه •

وان كان هناك فى تاريخ المسلمين ما يفيد دعوتهم الى الانصراف عن الدنيا كلية ، فذلك امر لا يعود الى مبادىء الاسلام •

وان كان فيه ما يقلل من شأن هذه الدنيا فذلك فى مقابل الآخرة فقط •

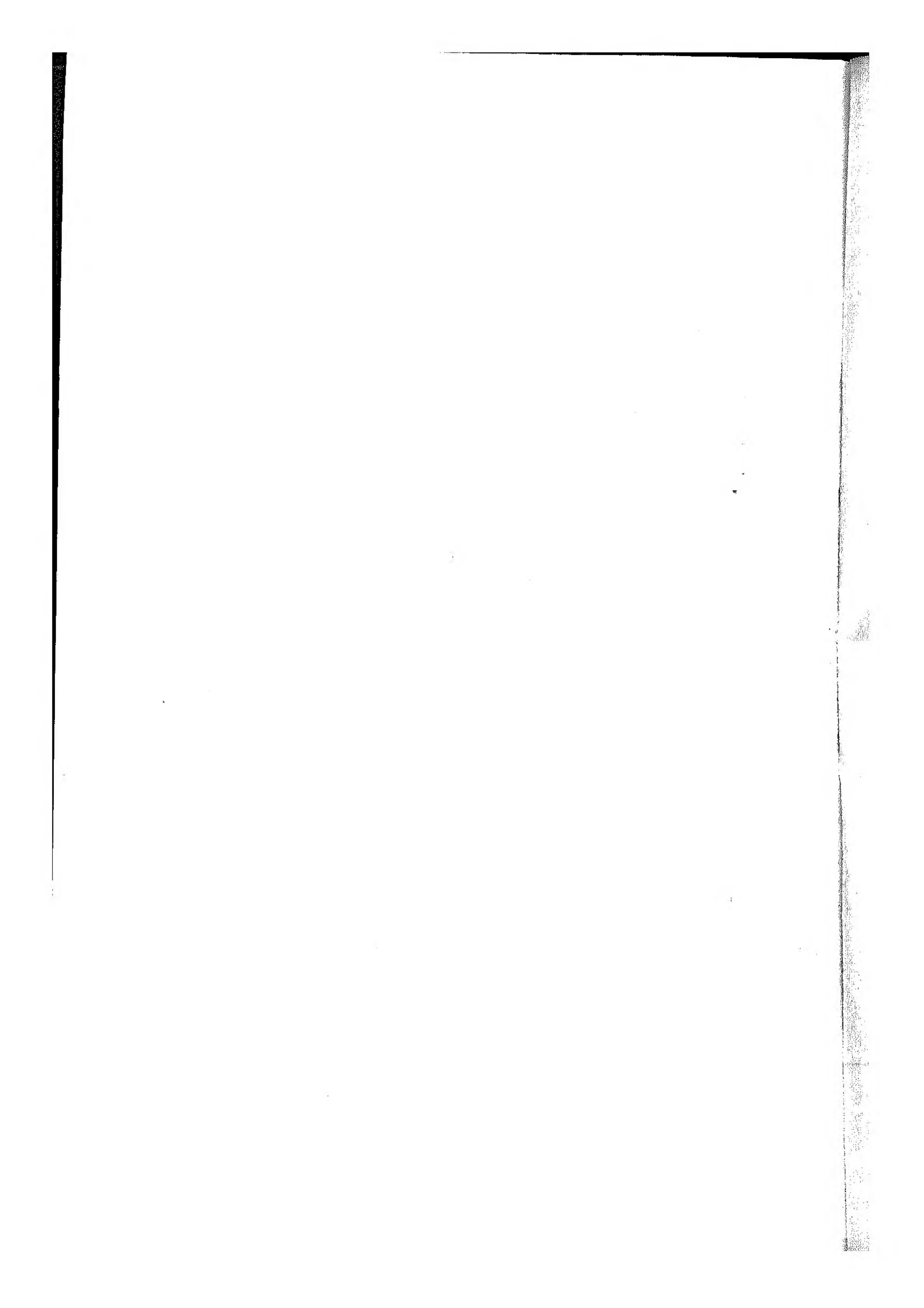
وان كان فيه ما يعيب على الماديين كفرهم بالله بسبب وقوعهم تحت تأثير الاقتصاد ، فان ما يعاب حقا هو ايثار الاقتصاد والطغيان به ، فى مواجهة القيم الانسانية •

الاسلام لا يحقر الاقتصاد ، ولكن يلتزم بالقيمة الحقيقية له • فالله فى الاسلام واحد •• والاقتصاد ليس شريكا له فى الألوهية ، ولا متفردا بها •

محتويات الكتاب

رقم الايداع ٣٦٠٤ / ٩٨١

الترقيم الدولى ٦ ـ ٢٩ ـ ٧٣٣٥ ـ ٩٧٧



73